

# حوران الكبرى أو شرق الأردن حضريّة أنثروبولوجية

الدراسات اللغوية واللهجية، تشير إلى وحدة المنطقة التي تسود فيها اللهجة الحورانية من جنوبي دمشق حتى حدود البلقاء الجنوبية، لتبدأ من بعدها شقيقتها اللصيقة باللهجة الموآبية.

من جنوبي دمشق إلى معان الشامية، منطقة واحدة تمثل أحد مجتمعات المشرق العربي: حوران الكبرى أو ديرة الأنباط ومملكة بئرا أو ديرة الغساسنة وملجاً الأمويين أو شرق الأردن.

اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر، بدأ العثمانيون سلسلة من الإجراءات الهادفة إلى تأمين منطقة شرق الأردن، التي أظهر غزوها (1833) من قبل إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا، حاكم مصر، موقعها الاستراتيجي بالنسبة إلى أمن بلاد الشام والحجاز، وخصوصاً تأمين طريق الحج الشامي المار حكماً في الأراضي الأردنية، والواقع تحت رحمة القبائل البدوية، التي طالما هددت هيبة الدولة العثمانية بالتعرض لقوافل الحج التي عُذ تسييرها وحمايتها واجباً دينياً وسياسياً رئيسياً للسلطان. وكان درء المخاطر عن الحجاج يتطلب تسديد حوة سنوية للقبائل التي تنازع الدولة، وتتنازع في ما بينها، على السيادة على طريق الحج.

خطة العثمانيين سارت في اتجاهين: تكوين الإدارات المحلية في إربد (1851) ثم في السلط (1861) ثم في الكرك (1893) ونشر قوى الأمن، وتشجيع الاستقرار الزراعي من خلال توفير الحماية للقرى، والشروع في إنشاء قرى فلاحية جديدة على طريق الحج من خلال نقل مهاجرين من القفقاس لتأسيس أو تعزيز قرى زراعية في عمان ووادي السير وجرش والرصيفة والزرقاء وصويلج وناعور، استقطب بعضها فلاحين وبدوا محللين للاستقرار، أو من خلال تشجيع هجرات داخلية كالتي قامت بها عشائر كركية إلى مادبا وماعين، أو استقرار عشائر سلطية في الفيحيص وصافوط والرقيميين وناعور، أو السماح لعائلات مصرية بالاستقرار في سحاب أو حتى بدعم استثمارات زراعية مكثفة كما في الياودية وبعض مناطق بني صخر، اعتماداً على فلاحين من فلسطين.

شهدت البلاد نهضة في الإنتاج الفلاحي، حولت واقع المجموعات السكانية من البداوة وشبه البداوة إلى الاستقرار وشبه الاستقرار نصف الفلاحي نصف البدوي. وتكوّن فائض في المنتجات الزراعية اتجه نحو التصدير للأسواق الخارجية، ونشأ عن ذلك وفود واندمج فئات اجتماعية جديدة من التجار والحرفيين الذين قدموا لخدمة مجتمع بدأ يتحرر من نمط الاكتفاء الذاتي ويعتني نسبياً ويرنو إلى تلبية احتياجات جديدة. من جهة أخرى، أدى الوضع الجديد إلى ظهور الاتجاه إلى التعليم النظامي الذي وفرته، بداية، مؤسسات كنسية وافدة. ويمكن القول إن المجتمع الأردني الحديث قد تأسس في تلك الفترة بالذات، أي اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر، وانعكست عملية التأسيس تلك سياسياً في خطة عثمانية (1878) لإقامة ولاية خاصة بالمناطق التي تشكل الأردن الحالي سُميت في الخطة «ولاية عمان» أو «معمورة الحميدية».

لا يزال المنسق (ذلك الطبق البسيط المكوّن من لحم الخروف أو الجدي المطهو باللبن المخيض أو بمرس اللحم والسمن. وقد حل محله اليوم الأرز المغلقل المزين بالمكسرات المقلية) سيّد المائدة الأردنية، والأكلة اللدّي الأردنة، والطعام المعتمد في الأعراس والمناسبات والعشائرية والسياسية. ورغم أنه تحوّل إلى طبق يُقدّم في مطاعم عامة أو يُطهى لغداء العائلة أو عشاء الأصدقاء، فإنه لم يفقد هالته الأسطورية في الثقافة الشعبية الأردنية. وقد كانت العشائر

تشابكت الأنماط الفلاحية والبدوية، وتكثفت في سيادة نمط موحد يتألف من زراعة الحبوب، وخصوصاً القمح (وإعداد وحفظ مشتقاته للغداء كالحبوب والجريش والبرغل والفريكة)، وتربية الأغنام، ومعالجة تدفق الكميات الضخمة من الحليب في الموسم الربيعي من خلال تحويل الحليب إلى سمن وجميد. وهناك، بالطبع، منتجات أخرى عديدة، تدخل في التقليد الغذائي، بعضها أساسي كمنتجات الحبوب والنباتات البرية والخضروات والمقاضي، وبعضها ثانوي كاللحم الحمراء والبيض، وبعضها موقوت في موسم فقط. لا يُحفظ كاللبن والزبد والقشدة.

الحبوب والحليب هما عماد المطبخ الأردني التقليدي. ومنهما تنوع المائدة، أطباقاً عديدة، ومنها الطبق الاحتفالي، المنسق المحاط بهالة ميثولوجية، وخصوصاً أنه يرتبط بالذبايح. ولا ذبيحة، في التقليد الغذائي الأردني، دون ميثولوجيا المناسبة الحياتية، كالزواج والولادة والوفاء والسكن الخ. لكن في قمة المناسبات الميثولوجية، تأتي الضيافة.

كلّ مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع نصف البدوي. نصف الفلاحي، يمكن تكثيفها في ميثولوجيا الضيافة. فالضيف ليس هو الشخص الزائر، بل هو تجسيد لزيارة المطلق إلى المطلق في المطلق. الضيف هو «ضيف الله»، والضيافة ضرب من عبادة.

الضيافة، كما لاحظ جاك دريدا، هي «قانون إنساني مطلق وغير مشروط ويتسم بالعلوّ؛ أن تعطي للقدم كل ماواه وذاته وخصوصيته وخصوصيتنا من غير أن نطلب منه اسمه ولا مقابلاً»، إنما في «تناقض (مستمر ومستحيل) مع قوانين الضيافة ذاتها» التي جعلها

تتباهى بسعة السدور التي تقدّم عليها المناسف. يوضع، أولاً، الجريش المغلقل ثم يُغطى بالشرا، ثم توضع فوقه قطع اللحم، ويشرب باللبن المطبوخ. ويعكس العادات الحالية، كان الأردنة يقطعون اللحم قطعاً صغيرة، وذلك بما يكفي أدواراً عديدة من الأكلين المتتابعين على المنسق نفسه، وهو ما يدل على نزعة اقتصادية لا إصراف فيها، ويستلزم أداباً في الأكل سيأتي الحديث عنها.

ليس المنسق مجرد طبق، بل هو تكثيف ثقافي لشخصية شرق الأردن الاقتصادية والاجتماعية. ففي هذا الطبق، المجلّ، تقليدياً، طعام ذي رمزية ثقافية. يتحد عالمان: عالم البداوة المستقرة (ومنه لحم الضأن ومرس اللبن الجميد والسمن) وعالم الفلاحة البعلية (ومنه عويص الشراك وجريش القمح أو البرغل أو الفريكة).

والمنسق ليس طبقاً بدوياً بالتأكيد. فلا لبن الإبل صالح للخص والجديد والطح، ولا لحم النياق صالح ليغطي في اللبن، لأنه، في هذه الحالة، يشد ويقسو ولا يؤكل، بل يطبخ لحم النياق بالماء، ويُسكب مرقه على فتيت الخبز الشراك، ويوضع فوقه اللحم المسلو، وهذا هو الثريد المشهور عند العرب.

المنسق هو تكثيف للتركيب الاجتماعي الأردني التقليدي الرئيسي المنسوج من عشائر نصف بدوية. نصف فلاحية (بالأساس: مزارعي حبوب ومرابي ضأن وماعرز) هنالك، بالطبع، انزياحات بدوية (يربون الإبل أيضاً. وهو ما يسمح لهم بمساحة تحرّك أوسع) وفلاحية (يزرعون البساتين والخضروات ويربون البقر والدجاج أيضاً كما، تحديداً، في الشمال الأكثر اقتراباً من عالم الفلاحين).

ينقل الدكتور يوسف غوانمة عن مصادر أصلية «أن المنسق كان من الأكالات الشائعة في الفترة المملوكية (...) ومن الطريف أن الأردنة، في تلك الفترة، كانوا يستخدمون الأرز، إلى جانب البرغل، في إعداد المنسق. وربما كان ذلك بسبب ازدهار الصلات السياسية والتجارية، وقتذاك، مع الديار المصرية» (يوسف غوانمة، «التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي»، 1982، ط2، دار الفكر الحديث بعمّان).

الرشوف (من مريس اللبن الجميد وجريش القمح والعدس والسمن الحيواني والبصل) الطبق اليومي الواقعي في شرق الأردن التقليدي، أبلغ في التعبير عن ذلك الاتحاد بين عالمي البداوة المستقرة والفلاحة. لكنه، كعشرات الأطباق التي تقوم على المزج بين مشتقات اللبن ومشتقات القمح، يفتقر إلى الرمزية التي احاطت بالمنسق الذي لم يكن يُطهى إلا في احتفال كبير، وفي حالات محددة احتفالية مثل استقبال الضيف البعيد المهم وتدشين البيت الجديد والولادة والفرح والترح.

البشر هم أبناء الأرض. وتضاريس شرق الأردن هي التي شكّلت المجتمع المحلي عبر الألف السنين. حركات أرضية عنيفة أدت إلى التصدّع الغوري، ورفعت سلاسل من الهضاب العالية التي تحوّل إلى جزيرة رطبة من المرتفعات تطل على شاطئ من الجروف غرباً باتجاه وادي الأردن ووادي عربة، وتتهادي، بانسياب، إلى الصحراء المفتوحة شرقاً، تفصلها وديان داخلية لم تؤثر على بنيتها المتصلة من الهضاب العالية الرطبة.

## لا يزال المنسق، الطعام المعتمد في الأعراس والمناسبات العشائرية والسياسية

مشروطة بتفصيلات معقدة».

في هذا التناقض تنكشف الضيافة (نصف البدوية. نصف الفلاحية) لا عن أعراف كرم نبيل، بل عن شبكة علاقات تنعرج ماديتها بصلاية في مجمل عملية إنتاج الحياة نصف البدوية. نصف الفلاحية، وإعادة إنتاجها. لكن الإنسان، بالطبع، يهرب من ثقل الشروط المادية إلى رهافة المطلق وتلاوين الثقافة الروحية.

من سوء حظ دريدا أنه لن يكون بإمكانه بعد أن يطالع على غنى التجربة الإنسانية للضيافة كما تعلقت في مجتمع عربي عشائري غير منقسم طبقياً ومهجن بين البداوة والفلاحة. لكانت تلك التجربة قد أسهمت في تعميق أسئلته الفلسفية بشأن الضيافة.

البدوي، الكامل البداوة، ليس مضيفاً إلا في شروط محددة. إنه مقاتل بالدرجة الأولى. وجمّله ليس وسيلة إنتاج، بل وسيلة نقل يمكنها أن تحمله وتمنحه القدرة على الحياة داخل الصحراء التي تحميه من مطاردة الجند. البداوة علاقة سياسية تؤمّن مستلزمات حياة البدوي. وضيافة البدوي يمكن فهمها في سياق هذه العلاقة فحسب؛ أي كنظام من الشروط المرافقة واللازمة للعلاقة السياسية داخل البداوة نفسها، وليس خارجها، حيث الخارج (الفلاحون والدولة) هو الجهة التي تتنازل للبدوي عن قسم من الثروة المنتجة أو المحضلة من المنتجات، لقاء تلافى الحرب.

الفلاح هو الآخر ليس مضيفاً بالمعنى المطلق. إن مبلغ كدحه، المهتم من الطبيعة والدولة والبداوة، باستمرار، لقاء حياة من الكفاف، تدفعه إلى الحرص. الحرص هو أساس الثقافة الإنتاجية للفلاح الكادح الحذر المتشكك الذي لا يضمن له شقاؤه في العمل المضني، نتائج أكيدة، بل محتملة ومعرضة للخطر.



لكن، ماذا إذا استقرّ البدوي في مرتفعات ووديان زراعية على سيف الصحراء، كما هو حال شرق الأردن؟ سوف يتخلّى عن الحمل ويفلح الأرض ويرعى الغنم، لكنه لن يتحوّل إلى فلاح أبداً. فما دام مهدداً من الصحراء المحاذية باستمرار، سيحتفظ بسلاحه وبعضوية المنظمة السياسية المقاتلة التي هي العشيرة القائمة على تسبيح معقد من قرابة الدم والنسب والتحالفات. ويقدر ما يحتاج إلى عضوية العشيرة، فسبخضع لشروطها؛ فلا مُلكية فردية خاصة للأرض التي تظل مُلكاً جماعياً، ولا تحلّل من التزامات العلاقة السياسية مع القرى والحليف، ولا تخل عن ثقافة القتال، ولا خضوع فردي للدولة، ولا خوف على الذات والعائلة من الفشل والجوع في ظل نظام تضامني.

النسبة الغالبة من الأردنيين هي ذلك البدوي الذي تحوّل منتجاً فلاحياً، وبقي عضواً في عشيرة. إنه نصف بدوي. نصف فلاح، متحرر من الاشتراطات البدوية والفلاحية معاً. وهكذا، سيكون لدينا المضيف المنسجم مع قانون الضيافة المطلق. رجل حر يملك غذاءه وشرابه، يغادر مستقره القروي إلى عزب ناء عن بيته الدائم، في حقل لزراعة أو كرم لدوابه وتينه أو مرغى لغنمه. هنا، حيث يقيم في مصفوفة من الحجارة العنشيمة يدعوه «قصر» أو في كهف أو في خيمة، وحيداً عزباً، سوف تمرّ به لتلقى الضيافة. الضيافة، في هذه الحالة، ليست خياره. إنها واجبه المحتّم المؤكد الذي لا فكاك منه، إزاء الغريب. إنه، وقد تموضع في عزب للعمل وأعدّ عذّة الإقامة في الخلاء، مواتلاً وماكلًا ومشرباً، منذوز كلباً لكي يكون مضيفاً. ليس بمستطاعه ألا يكون مضيفاً، وليس على الغريب المآز أن يسأله الضيافة أو حتى أن يخطر في باله ألا يلقى الترحاب الأكيد من مضيف مطلق، يد الله هي التي صاغته كمضيف ليس له خيار. ليس كريباً، بل هو موجود، هنا والأن، لكي يستضيف الغريب المآز في خلاء لا يتركه الله بلا مستراح أو نار أو طعام أو شراب. لدى مضيف هو المسمى المعزّب - المعزّبين.

المعزّب، المكزّب للعمل في العزب، لا يُعرّف بعمله أو بشروط عمله، ولكنه ينماهى مع كونه المضيف الخاضع لاشتراطات وظيفة مطلقة لا يعاندها، والكلى الجود، الزجج المراح والصدر، والمُلهّم بكرم اللسان، بالبدش يطفح من وجه مأمور بتلقّي عيون الضيف بعبودية الضيافة. «وإني لعبد الضيف...»، هذا ما يُسمى «الملاقة».

تغدو هذه الوضعية مطلقة، بالانتقال من العزب إلى المستقرّ. فالمضيف، في منزله الدائم، هو معزّب أيضاً. وحالما يحلّ الضيوف يصبح أهل البيت معزّبين، بل تنتقل الوضعية إلى الزوجة، فهي معزّبة لزوجها. وفي ذلك معنيان: أن بيت

■ نائب رئيس التحرير: بيار ابي صعب ■ محبر التحرير: إيلي شلموب، وافي، قاصو ■ اقتصاد: محمد زبيب، محليات حسنة عليف، مجتمعي، مهدي زراطة ■ ثقافة: وائل، امك الاندري

■ المحبر الفني: إميل منعم

■ رئيس مجلس الإدارة: إبراهيم الامين ■ الدارة المالية: فادي خليل

■ الموارد البشرية: رباح اسماييل

■ المكاتب: بيروت - فردان - شارب دونان - سنتر كونكوردي - الطابق

السادس ■ تليفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 5963/113

■ www.al-akhbar.com

■ الاعلانات: Tree Ad 03/252224-01/611115

■ التوزيع: شركة الواتك 03/828381-01/666314-15

## الزخار

تأسست عام 1953  
تصدر مع شركة «أخبار بيروت»

رئيس التحرير المؤسس:  
جوزف سماحة  
(2006-2007)

مستشار مجلس التحرير:  
انسب الحاج

رئيس التحرير: المحبر المسووك  
إبراهيم الامين